

## الأثر الحضاري للعراقيين عصر المماليك

أ.م.د. أنوار جاسم العنبيكي

كلية التربية- الجامعة المستنصرية

الكلمات المفتاحية: أثر، حضارة، عراقيين، مماليك

### الملخص:

هاجر الكثير من العراقيين قبيل وبعد سقوط الخلافة العباسية على يد المغول سنة (1258/656م)، الى مصر وبلاد الشام خلال عصر دولة المماليك، ونقلوا معهم ثرواتهم وخبراتهم وثقافتهم وأستقر قسم منهم في بداية هجرتهم في بلاد الشام، والقسم الآخر أستقر في مصر، ولاسيما في القاهرة والإسكندرية وعملوا في مجالات مختلفة في ظل ظروف أكثر أمناً واستقراراً، وقد حصل الكثير منهم على جاه عظيم وحظوة كبيرة لدى سلاطين المماليك وكانت لهم تأثيرات واضحة في كافة نواحي الحياة ولاسيما الجانب السياسي والحضاري.

### المقدمة:

للعراقيين دورٌ كبير في الحضارة العربية الإسلامية وإسهاماتهم واضحة في أثناء هذه الحضارة من خلال نتاجاتهم العلمية واعمالهم الخالدة، ولا سيما خلال وفودهم على دولة المماليك ورغم الانهيار الكبير الذي تعرض له المجتمع العراقي في أعقاب الهجوم المغولي على بغداد واسقاط الخلافة العباسية سنة (656هـ/1258م) غير أن هذا الحدث الجلل لم يكن عائناً امام الكثير من العراقيين لمواصلة ابداعاتهم من خلال الانتقال الى الأقطار المجاورة، ولا سيما مصر وبلاد الشام حيث استقطبت هذه البلدان أعداداً كبيرة من العراقيين وبرز دورهم في إغناء هذه المناطق ولتتهل من علمهم وثقافتهم ونشاطاتهم المختلفة سواء في الناحية السياسية أو التجارية والحضارية ولا تزال شواهد حضورهم وإسهاماتهم الحضارية شاخصة للعيان في كثير من المناطق التي استقروا فيها ومدونه في ثنايا الكتب.

ومن هنا جاء سبب اختيار موضوع البحث الموسوم ((الأثر الحضاري للعراقيين عصر المماليك)) لتسليط الضوء على أهم إنجازاتهم الحضارية ولا سيما عصر المماليك. وقد ارتأينا أن نأخذ نموذج من العراقيين المتمثلة في ((تجار الكارم)) ولاسيما من العراقيين الذين كانت لهم إسهاماتهم الحضارية الكبيرة خلال ذلك العصر.

## أولاً : هجرة العراقيين الى مصر وبلاد الشام

## 1 - أسباب الهجرة

قبل الحديث عن جهود العراقيين واسهاماتهم الحضارية في بلاد الشام ومصر في عصر المماليك لابد من معرفة أهم الأسباب التي دفعت الكثير من التجار والمثقفين الى الهجرة ويمكن أجمالها في هذه النقاط :

- 1- تعرض العراق الى التشتت والانقسام على أثر الغزو المغولي لبغداد والذي نتج عنه سقوط الخلافة العباسية وإنهاء حكمها الذي استمر لأكثر من ستة قرون ( أحمد عودات وآخرون، 1990: 30).
- 2- أن الكثير من العراقيين كانوا قد هاجروا واستقروا في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، وكان هدفهم الحصول على العون والمساعدة للتصدي ومجابهة المغول بعد ما وصل الى سمعهم حجم الدمار والخراب الذي يخلفه المغول في كل المناطق التي يدخلونها (يوسف جرجيس، 1983: 206).
- 3- أنتشار البطالة بين المتعلمين وذلك في أعقاب الضرر الكبير الذي لحق بالمؤسسات العلمية، حيث أحرقت المكتبات ودور العلم، ومحاولة المغول القضاء على الآثار الإسلامية التي انتجتها العقول العراقية (الغيث، 1975: 343).
- 4- الدمار الكبير الذي شمل الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية طيلة عهود السيطرة المغولية، لذلك توجه الكثير من العراقيين الى مناطق أكثر أمناً واستقراراً وكانت وجهتهم بلاد الشام ومن ثم الى مصر وسبب اختيارهم الاستقرار في هذه البلدان هو ظهور دولة المماليك كدولة قوية ورثت زعامة العالم الإسلامي في تلك الفترة ولاسيما بعد الانتصار الكبير الذي حققوه في معركة عين جالوت ( 658هـ/1265م) وقيام الظاهر بيبرس ( 658 - 676هـ ) بإعادة أحياء الخلافة العباسية في القاهرة ولو بشكل أسمى، في سبيل أضياف الشرعية على حكم المماليك في مصر ( سعيد عبد الفتاح عاشور، 2001 : 57 ) وتجدر الإشارة ان تلك الهجرات كانت تتم بعيداً عن أنظار وأجهزة الدولة الأيلخانية ورقابتها (أبن أبي الفضائل ، 1928 : 93) وكان هؤلاء المهاجرين معرضين لشتى أنواع المخاطر ولاسيما في حال اكتشاف أمرهم من قبل أجهزة الدولة الأيلخانية ( أحمد عودات وآخرون ، 1990 : 38 ) .

ومن الجدير بالذكر أن هجرة العراقيين لم تكن من منطقة أو مدينة واحدة، حيث شكلت مناطق العراق الشمالية والوسطى أعلى نسبة من الوافدين الى مصر وبلاد الشام ، ولكن هذا لا يعني أن المناطق الجنوبية من العراق لم تشهد انتقال بعض أفرادها الى دولة المماليك

حيث ذكرت كتب التاريخ الكثير من المهاجرين البصريين الذين انتقلوا الى مصر واستقروا فيها وبرعوا في التجارة ، ولا سيما تجارة الكارم ( الأشقر ، 1999 : 21 ؛ العنبي ، 2015 : 95 ) .

## 2 – العراقيون في بلاد الشام ومصر

أستقر الكثير من العراقيين بعد الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية في بلاد الشام ومصر وأخذوا معهم ثرواتهم وخبراتهم وثقافتهم، وتركزوا بعد هجرتهم في مصر ولاسيما في القاهرة والإسكندرية للعمل في مختلف الوظائف في ظل ظروف أكثر أمناً واستقراراً وأكثر الأعمال التي زاولوها هي التجارة ولاسيما تجارة الكارم ( المشهداني ، 2019 : 162 ) .

وقد حصل الكثير من هؤلاء التجار على جاه عظيم و ثروات ضخمة ومكانه بارزة في الدولة والمجتمع، ومن أشهر الأسر التي هاجرت واستقرت في بلاد الشام أسرة وجيه الدين محمد بن علي بن سويد التكريتي، وكان واسع الأموال والمتاجرة، وكان قد غادر العراق قبل الغزو المغولي وفي عهد الدولة الأيوبية (567 - 648هـ) وأتصل بالسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ( 570 – 589هـ) وأصبحت حكمته نافذه عنده وكانت متاجره لا يتعرض لها أحد وبعد سقوط بغداد وهجرة أغلب التجار العراقيين الى بلاد الشام ومصر أدرك هولاء أهمية وجودهم ولاسيما مركز وجيه الدين فبعث إليه والى أتباعه الأمان والأموال مقابل التعاون معه غير أن وجيه الدين رفض ذلك ، وكان وجيه الدين معظماً عند السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة المماليك وصاحب الدور الكبير في أحياء الخلافة العباسية، حيث يجلب ويحترم وجيه الدين والسبب في ذلك الخدمات الكثيرة التي قدمها وجيه الدين للظاهر بيبرس قبل توليه السلطة ( يوسف جرجيس ، 1983 : 210 ) .

وبرز من هذه الأسرة أيضاً عدة شخصيات وتمكنوا من ارتقاء مناصب مهمة في دولة المماليك بفضل المكانة الاجتماعية البارزة التي تمتعوا بها ، ومن هؤلاء الصدر جمال الدين يوسف بن علي بن مهاجر التكريتي الذي شغل منصب حاسبة دمشق ( أبو الفداء، ب ت : 104 / 14 )، وأيضاً من المعروفين من هذه الأسرة أخوه أبو البقاء تقي الدين بن مهاجر التكريتي الذي عرف بالبيع، حيث كان تاجراً ورحل الى الشام في أعقاب سقوط الخلافة العباسية واستيلاء المغول على بغداد ، وتولى مهمة البيع بدار الوكالة، ثم ضمها أيام الظاهر بيبرس ، وخدم كذلك في عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ( 678 – 689هـ) حيث أقرض السلطان ستين ألف درهم بدون فائدة (المقريزي ، 1963 : 1/180 ) .

أما أولاد جمال الدين يوسف أخو وجيه الدين فهم شمس الدين محمد وعلاء الدين علي وبدر الدين حسن، وقد عمل شمس الدين مكان أبيه بدار الوكالة، فيما عمل أخواه الأخران أجناداً بأقطاعات جيدة في حلقة دمشق (النعيمي، 1984 : 4/185 ) .

وأيضاً تولى الكثير من العراقيين القضاء ومناصب في الحكم مثل القاضي عبد الرحمن التكريتي وكان فاضلاً نزيهاً عفيفاً توفي سنة (739هـ - 1340م) ، وكانت من أكبر البيوتات التجارية في مصر وبلاد الشام هي أسرة آل الكويك التكريتية التي اشتغلت بشكل رئيسي في التجارة الكارمية، وكان كبير هذه الأسرة محمود بن ابي الفتح بن شمس الدين بن الكويك التكريتي الذي رحل بعائلته وأمواله الى بلاد الشام ، ثم بعد ذلك أبنه محمد بن محمود بن أبي الفتح التكريتي واستقر في الإسكندرية ، كما استقر قسم منهم في القاهرة في بركة الحبش (أبن بطوطة، 1938: 1/319؛ القلقشندي، ب. ت : 296 / 5) .

وبرع الكثير من هذه الأسر في تأليف الكتب ومنهم التاجر سراج الدين بن الكويك التكريتي ، حيث أخرج كتباً وأحاديث جمعها في مجلدات ، ويعد التاجر نور الدين علي بن الكويك الربيعي أحد التجار العراقيين المشهورين بأعمال الخير والسير في مصر ونسب إليه إعادة بناء وترميم إحدى الحمامات في القاهرة وهو الحمام المعروف ب(حمام الكويك) (المقريزي ، 1998 : 262 / 2 ؛ ابن عبد الظاهر ، 1961 : 149)

كذلك أشتهر بعضهم بالشعر والمدائح النبوية مثل الشاعر ثامر بن أحمد بن عطا الله التكريتي الأصل الذي كان ينشد المدائح النبوية وينشرها، وكان للكثير منهم منشآت تجارية ومباني مختلفة (النعيمي، 1948: 4/220 ؛ يوسف جرجيس، 1983 : 206) .

ومن التجار الذين رحلوا الى دمشق علي بن إبراهيم بن علي الواسطي، حيث قدم الى دمشق عدة مرات، وكان يصرح دائماً أنه كان له ببغداد كتب تقدر بألفي مجلد، وأن جماعة من التجار أعتصبوها وجاءوا بها الى دمشق وباعوها (المقريزي 1998: 2/280؛ العاني، 198: 282)

### ثانياً : الأثر السياسي للتجار العراقيين

#### 1 - دعم العلاقات الدبلوماسية والتجارية

لعب العراقيون الوافدين الى دولة المماليك دوراً كبيراً ومؤثراً في المجال السياسي ولا سيما في تطور العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الدول التي تمتعت بعلاقات سياسية جيدة مع دولة المماليك، حيث أهتموا بتوثيق العلاقات بين مصر وبلاد الصين، وذلك حرصاً منهم على ازدهار تجارتهم وتدعيم مكانتهم، ففي سنة ( 703هـ / 1313م) وصل أحد تجار الكارم العراقيين من بلاد الخطا وكان معه من الحرير ثلاثمائة بهار ومن المسك ومن أوان الرصاص أربعمائة وخمسون رطلاً ( الخزرجي، 1911 : 1/ 250 )، ومن الفخار الصيني الشيء الكثير ، وطلب من صاحب اليمن السماح له بمواصلة رحلته الى مصر ، وبعد ذلك وبفضل هؤلاء التجار انتظمت العلاقات التجارية وتطورت بين مصر والصين ، وأيضاً أرسلت دولة المماليك عدداً من هؤلاء التجار كسفراء الى الصين وكان يتم استقبالهم بحفاوة وإكرام، وفي سنة (845هـ / 1441م) أرسل السلطان برسباي سفاره الى الصين وكانت مؤلفة من مجموعة من

التجار العراقيين وكان الغرض منها هي تقوية أواصر الصداقة بين البلدين وقد أثمرت هذه السفارات عن تبادل الهدايا وتمتين العلاقات بين ملوك الصين وسلاطين الممالك ( محمد زيتون ، 1964 : 14 ) .

وذكر ابن بطوطة أن التاجر كان إذا قدم على بلد من بلاد الصين يخير بين النزول عند أحد التجار المسلمين المستوطنين في الصين أو الفندق وفي كلتا الحالتين كان التاجر آمناً على أمواله وحياته، وكانت لهم حرية التنقل، وأشاد ابن بطوطة بأسرة التاجر العراقي سراج الدين بن الكويك التي صادفها في بلاد الصين، حيث استقر التاجر السابق الذكر في أحد المدن الصينية واستحسنها وأورث أحد أبناءه فيها الجاه والحرمة (أبن بطوطة، 1938: 1/32).

كذلك لعب التجار العراقيين دوراً هاماً في توطيد العلاقات بين دولة الممالك وبلاد الهند ، نظراً لكثرة ترددهم على هذه البلاد حيث أتسع نشاط تجارتهم مع مصر بشكل كبير ، ففي سنة (689هـ/1283م ) حمل أحد التجار العراقيين رسالة من حاكم سيلان (أبو نكبه) الى السلطان المنصور قلاوون، تضمنت رغبة سلطان سيلان في عقد اتفاقية تجارية مع مصر ويعلن استعدادهِ لشحن عشرين سفينة بأنواع متاجر الكارم فرحب السلطان قلاوون بهذا العرض (أبن الفرات، 1942: 7/261؛ أبن عبد الظاهر ، 1985 : 52).

وفي سنة ( 693هـ/1294م) سافر التاجر العراقي أبن بكاش الى الهند وعمل في خدمة أمرائها، وكذلك في سنة (730هـ/1329م ) بعث صاحب الهند هدية قيمة الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون بصحبة أحد التجار العراقيين غير أن صاحب اليمن صادرها ( أبو الفداء، ب.ت : 4/108 ) .

وذكر أبن فضل الله أن الهدية بلغت ألف ألف دينار فضلاً عن أموال أرسلت برسم الحرمين الشريفين وبيت المقدس، وفي السنة التالية أرسل صاحب الهند هدية عن طريق بغداد صحبة تجار الكارم العراقيين ، وذلك لكي يتفادوا المرور بمدينة عدن فأكرم الناصر محمد بن قلاوون وفادتهم وقدموا له مشروعاً مفاده أن تهاجم نيودلهي ايلخان فارس من الشرق وتهاجم دولة الممالك اليمن من الغرب، ويبدو أن صاحب الهند كان يهدف من ذلك الانتقام من صاحب اليمن وايلخان فارس في الوقت نفسه، وذلك بتحويل طرق التجارة الى أرض الجزيرة ومنها الى موانئ الشام مباشرة لكي تتخلص قوافل التجار من عرقلة التجارة الكارمية والبعثات التجارية والدبلوماسية بين الهند ومصر ، أما بلاد فارس فكان الهدف من الانتقام هو سياسة ايلخان فارس وتقاربها مع الدول الأوروبية ونشاطها التجاري حيث نشطت تجارتها مع أوروبا بشكل كبير ( أبن فضل الله ، 2012 م : 1/190 ) .

وكانت مدينة تبريز مركزاً لنشاطهم التجاري ، غير أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يوافق على هذا المشروع وذلك حرصاً منه على علاقاته الجيدة مع ايلخان فارس (سليمان

عطية، 1959: 135) وبفضل العلاقات الدبلوماسية بين الهند ودولة المماليك ودور التجار العراقيين في هذا الجانب، شغل بعض منهم مناصب مهمة في الهند، حيث عمل التاجر العراقي محمود بن محمد الكيلاني في خدمة صاحب إحدى المدن الهندية، كذلك تقلد عدداً منهم مناصب إدارية في الهند مثل التاجر أحمد بن علي الكواز الذي أصبح سفيراً للسلطان المملوكي في الهند (ابن اياس، 1982: 2/431؛ السخاوي، 1985م: 10/ 45).

وحرصاً من التجار العراقيين وأدراكاً منهم لأهمية اليمن في رحلاتهم بين الهند والبحر الأبيض المتوسط، فقد عملوا على تدعيم نفوذهم في اليمن وتحسين العلاقات مع دولة المماليك ومحاولة الصلح بين الطرفين ففي سنة (704هـ/1304م) شكوا بعض تجار الكارم من سوء معاملة الملك المؤيد صاحب اليمن لهم وفرضه المكوس، فأرسل السلطان الناصر بن قلاوون رسالة بصحبة أحد التجار العراقيين الى صاحب اليمن يحمله عاقبة سوء تصرفه ولكن التهديد لم يحل الأزمة، حيث أمعن صاحب اليمن في ظلمه للتجار ونهب أموالهم، لذلك أمر الناصر محمد بن قلاوون بإرسال حملة الى اليمن، غير ان مجموعة من التجار العراقيين عملوا على تهدئة الأمور على أن يبعث الخليفة المستكفي برسالة تحذير الى المؤيد صاحب اليمن وكانت هذه الرسالة بصحبة التاجر العراقي محمد بن عثمان سنة (707هـ/1307م) ولذلك نجح هذا التاجر بفضل حكمته في منع نشوب الحرب بين الطرفين (أبو الفداء، ب: 4/180؛ ابن الوردي، 1969: 2/250؛ ابن تغري بردي، 1960: 3/102).

وفيما بعد تطورت العلاقات السياسية والتجارية بين البلدين ومما يؤكد ذلك نص الرسالة التي أرسلها الملك الأشرف إسماعيل ملك اليمن الى السلطان الظاهر برقوق في جمادي الآخرة سنة (798هـ/1396م) بصحبة التاجر برهان الدين المحلي البغدادي، وكانت تتضمن موافقة ملك اليمن على طلب سلطان مصر بتجهيز ما يحتاج إليه المتجر السلطاني من بضائع الكارم الواردة لعدن، وبطلب من السلطان بتسهيل مهمة التاجر في شراء بعض الحوائج من البلاد المصرية وأرسالها، وأيضاً بطلب الأذن له بالحج وتسيير المحمل كل سنة الى بيت الله الحرام (المقريزي، 1963: 201 / 1؛ القلقشندي، ب: 5 / 280؛ الخزرجي، 1912: 2 / 182).

وتعد دولة مالي وهي إحدى مدن السودان الغربي أو كما تطلق عليها بعض المصادر بلاد التكرور (القلقشندي، ب: 285 م 5؛ ابن فضل الله، 2012: 1/125؛ أبراهيم طرخان، 1970: 230) من أعظم ممالك السودان وكانت تربطها بدولة المماليك علاقات متينة ومتنوعة، ويعود الفضل في تنوع ومتانة هذه العلاقات الى تجار الكارم العراقيين، ففي سنة (725هـ / 1325م) حضر منسا موسى ملك دولة مالي الى القاهرة وكان في صحبته عشرة آلاف تكروري وبعض التجار وخمسمائة من الرقيق كل منهم يحمل كتلة من الذهب تزن خمسمئة مثقال (ابن بطوطة، 1983م: 1 / 322؛ المقريزي، 1963: 1/253) وكان عدد الجمال التي

تحمل الذهب تتراوح ما بين ثمانين الى مائة جمل يحمل كل منها ثلاثة قناطير ( القلقشندي، ب.ت: 295 / 5 ؛ ابن خلدون، 1983: 434 / 5) وبعث الى السلطان الناصر محمد هدية قدرت بحوالي خمسين الف دينار (ابن الوردي، 1909م: 2/375؛ ابن أيبك، 1972: 9/ 317). وشرع منسا موسى ورفاقه في شراء الجوازي والجمال وأحسن أصناف الثياب وغير ذلك وحصل للسياريف وتجار الكارم من جهتهم سعادة كبيرة، حيث أن الواحد من أتباعه كان يدفع خمسة دنائير في ثوب لا يساوي أكثر من دينار واحد ( القلقشندي، ب ت : 5/300 ؛ ابن بطوطة ، 1983م: 1/322 ).

وكان التاجر يحصل في كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار مكسباً ، ولذلك وبسبب هذا الإسراف والبذخ الكبير من قبل سلطان مالي أضطر الى الاقتراض من التاجر العراقي سراج الدين بن الكويك ( ابن بطوطة، 1938 : 1/ 335 ).

وأيضاً يعود الفضل الى تجار العراق من الكارمية في توثيق العلاقات بين مصر وإمبراطورية برنو من بلاد السودان الغربي أيضاً، وقد حمل التجار رسالة من سلطان برنو الماي عثمان بن ادريس سنة (794هـ/1391م) الى السلطان الظاهر برقوق، وذلك بعد أن بسطت برنو سيطرتها على طرق القوافل التي تؤدي الى الشمال الشرقي والى وادي النيل، وكذلك كان للتجار العراقيين دوراً كبيراً في ازدهار العلاقات مع بلاد النوبة ، حيث نجح السلطان الظاهر بيبرس من وضع الأسس المتينة للعلاقات بين مصر وبلاد النوبة، وبفضل جهود تجار الكارم ونشاطهم بين الدولتين حيث حملوا معهم الهدايا من الرقيق والشب وغيرها من المواد من دنقله الى مصر (القلقشندي، ب ت : 5/300؛ إبراهيم طرخان، 1975 : 165 ).

## 2 - دعم السلاطين المماليك وتقديم القروض

كان لتجار الكارم من العراقيين دوراً كبيراً في دعم سلطة المماليك وتقديم المساعدات والقروض عند الحاجة إليها، ومما ساعد على هذا الدعم المركز السياسي الكبير الذي تمتع به هؤلاء التجار والمكانة الكبيرة والحظوة لدى سلاطين المماليك، فضلاً عن مكانتهم التجارية، وتوضح ذلك الدور عندما قاموا بإقراض دولة المماليك ومساعدتها مادياً ولاسيما في وقت الأزمات والحروب ( الأشقر، محمود عبد الغني، 1999: 367 ).

ففي سنة (687هـ/1288م) قدمَ التاجر أبو بكر بن عتيق قرصاً الى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، وذلك لمواجهة الخطر الصليبي (أبن تغري بردي، 1960: 1/418) فضلاً عن ذلك فأن سلاطين المماليك كانوا لا يترددون من الاقتراض من التجار العراقيين وذلك بحكم المكانة المرموقة التي أكتسبها هؤلاء التجار، حيث قام بعضهم بتسييد بعض القروض لسلاطين المماليك التي اقترضوها من الصليبيين ، على أن يتم تحصيلها منهم فيما بعد، ففي سنة (711هـ/1311م) سدد تجار الكارم مبلغ (16000) دينار عن السلطان الناصر محمد بن

قلاوون، وكذلك في سنة (737هـ/1336م) أقترض السلطان نفسه من أحد التجار العراقيين مبلغ ألف درهم لحاجة الدواوين الى المال (المقريزي، 1956: 104/1؛ ابن حجر، 1972: 430 / 1).

وفي سنة (791/1389م) قدم أحد التجار قرضاً للسلطان برقوق ووضع نفسه وماله وأولاده في خدمة السلطان برقوق للتغلب على أعدائه وبالفعل نجح هذا القرض في تمكن السلطان برقوق ومساعدته في استعادة عرشه (ابن الفرات، 1942: 9/140).

وتم أكبر قرض بين التجار العراقيين والدولة عندما قام ثلاثة تجار وهم كل من إبراهيم بن عمر المحلي وأحمد بن مسلم وعلي نور الدين بإقراض السلطان برقوق مبلغ ألف ألف درهم فضة وحدث هذا القرض في الوقت الذي كانت فيه الدولة تستعد لملاقاة التتار (أبن الفرات، 1944: 9/140).

وتكريماً لموقف هؤلاء التجار الثلاثة وإسهامهم في الحفاظ على وحدة دولة المماليك واستقرارها فقد خلع السلطان برقوق على هؤلاء التجار الثلاثة الخلع الرفيعة تشريفاً وتقديراً لجهودهم (المقريزي، 1956: 240/3؛ أبن إياس، 1912: 202/1) وقام التاجر عوض بن موسى البزاز بإقراض السلطان جقمق مبلغ (30000) دينار، وذلك في أثناء استعدادهِ لغزو جزيرة رودوس في سنة (844هـ/1440م) (السخاوي، 1985: 2/460).

ولم يقتصر تقديم القروض لسلطين المماليك من قبل تجار الكارم العراقيين وإنما قام الكثير منهم بتقديم القروض لملوك التكرور واليمن والحجاز، فعندما حضر منسا موسى ملك بلاد التكرور الى مصر سنة (725هـ/1325م) ونفذ ما معه من الذهب أستدان هو ورفاقه من التاجر العراقي سراج الدين بن الكويك لمواصلة رحلته للحج، وأوفد هذا التاجر احد وكلائه مع الملك منسا موسى الى التكرور للتجارة واسترداد أموالهِ، ولكنه عرج الى مدينة مالي فتوفي بها لذلك ذهب سراج الدين بنفسه ومعه أبنه محمد فخر الدين الى السودان لاسترداد أموالهِ، وعندما وصلا الى مدينة تمبكتو سنة (734هـ/1333م) توفي سراج الدين فقام أبنه باسترداد أموال ابيه وعادَ الى مصر (أبن حجر، 1972: 405/2؛ أبن بطوطة، 1938: 431 / 1).

وكان صاحب اليمن يلجأ في بعض الأوقات الى التجار العراقيين من أجل الاقتراض، وكذلك أمراء الحجاز، ففي سنة (789هـ/1387م) أقترض أحد أمراء الحجاز وهو علي بن عجلان مبلغاً من المال من تاجر عراقي وذلك بسبب سيطرة عنان بن مغامس على جدة، وكذلك أقرض التاجر العراقي حسن بن محمد البغدادي أهل الحرمين (السخاوي، 1985: 2/463).

أيضاً كان للتجار العراقيين دوراً كبيراً في تقديم الخدمات العسكرية لدولة المماليك وذلك جزء من الوفاء بالدين لهذه الدولة التي أسهمت في حمايتهم وازدهار تجارتهم، وذكر أبن

بطوطة أن التاجر ابن رواحه كانت له قاعات معدة للسلح بالإسكندرية ، ويمكنه أن يجهز منها المائة والمائتين من الرجال وقت الخطر ( ابن بطوطة ، 1938 : 46 / 1 ) كذلك أنفق التاجر إبراهيم بن عمر المحلي البغدادي من ماله لأعداد قوة بالإسكندرية لمطاردة القراصنة الذين يهددون السواحل في سنة ( 805هـ / 1402م ) ( ابن حجر ، 1972 : 60 / 1 ) .

### ثالثاً : الأثر الثقافي

#### 1 - في نشر الإسلام

كان لتجار الكارم العراقيين دوراً كبيراً ومؤثراً في نشر الإسلام ولو بصورة غير مباشرة. حيث خرجت جماعات الصوفية في ركب قوافل هؤلاء التجار وأسهمت في دعوة الناس للإسلام على امتداد طرق القوافل، حيث نجح مجموعة من الصوفية بالاشتراك مع تجار الكارم في نشر الإسلام ( العدوي، إبراهيم، 1982 : 1/233 ) .

ونتيجة العلاقات التجارية بين مصر وبلاد السودان الغربي والتي ساعد على ازدهارها تجار الكارم ولاسيما من العراقيين الذين كان لهم حظوة عند ملوك السودان الغربي ، تمكن الكثير منهم على نشر الإسلام في هذه المنطقة بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث كانت قوافل تسير من مدينة سودانية الى أخرى ، فأختلط التجار بالسودانيين في الأسواق وتبادلوا معهم السلع والأفكار ، ونتيجة لهذا النشاط التجاري المتبادل والواسع، أستقر بعض من التجار في السودان ليكونوا حلقة الاتصال بين تجار الكارم في مصر وأسواق السودان الغربي، ونتيجة لطول مدة الإقامة تزوج قسم منهم من سودانيات مثل التاجر العراقي سراج الدين بن الكويك وعائلته ( إبراهيم طرخان، 1981م : 62 ) .

ولم يقتصر نشاطهم في نشر الإسلام على السودان الغربي وإنما شمل كافة المناطق التي امتدت تجارتهم لها مثل الحبشة ، حيث ذكرت المصادر أن الإسلام وصل الى الحبشة عن طريق الجاليات العربية التي استطاعت أن تكون جماعة تجارية في نهاية القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) وان لهذه الجماعات ولاسيما تجار الكارم قدره على التوغل في الحبشة وكان من ضمنهم تجار عراقيين، فأدوا دوراً كبيراً في نشر الإسلام داخل الحبشة ووجدوا ان أمراء وحكام الحبشة الترحيب والحفاوة وذلك بفضل نشاطهم التجاري وحسن تصرفهم واشتغالهم بتجارة الرقيق لمساعدة ملوك الحبشة ( حامد عمار ، 1996 : 45 ) .

ومما سهل عملية انتشار الإسلام هي طول إقامة هؤلاء التجار في بلاد الحبشة واختلاطهم مع أهلها ، فنتج عن ذلك إسلام عدد كبير من أهل الحبشة على أيديهم ولاسيما الطبقات الفقيرة من الأقباش والذين كانوا مثقلين بالضرائب (Arnold,1935: p345) .

وكان للتجار العراقيين أثر كبير في انتشار الإسلام بين المغول، حيث مكنتهم تجارتهم مع المغول من دخول بلاط الإيلخانات حاملين معهم الهدايا من الحلي والجواهر والعطور

والملايس الحريرية، وشيدوا المساجد والخانقاوات فكان لهم تأثيرهم الكبير على البلاط المغولي، مما أسهم في نشر الإسلام بينهم، فعندما ألتقى الإيلخان بركة بن جوجي بن جنكيز خان ببعض التجار العراقيين شرحوا له تعاليم الإسلام وأنتهى الأمر بإسلامه وذلك في أثناء وجوده في بلاد ما وراء النهر وقبل اعتلائه العرش ( رجب عبد الحلیم ، 1986 : 105 ) .

## 2 - النشاط العلمي

لم يقتصر دور التجار العراقيين من الناحية الثقافية في نشر الإسلام فقط وإنما كان لهم إسهام كبير في الناحية العلمية وإغناء الجانب العلمي، حيث ذكرت الكثير من كتب التراجم أن بعضهم أشتغل بتدريس الحديث والفقہ والإفتاء وعلم الفرائض والتفسير وعلم العروض ، وكان لهم بعض الدواوين في المدائح النبوية وبعض القصائد في النشر، مثل التاجر ثامر بن احمد بن عطا الله التكريتي الأصل الذي كان ينشد المدائح النبوية وينشرها. (أبن كثير ، 1932 : 14/1566 ؛ أبن حجر ، 1972 : 256 / 2 ؛ السخاوي ، 1985 ك 135 / 1 )

وأهتم قسم من التجار بتفسير سور الكوثر والإخلاص والبقرة، وبرع بعضهم في كثير من العلوم حيث كانت لهم مشاركة في النحو والتاريخ والأدب والمنطق، مثل التاجر علي بن إبراهيم بن علي الواسطي، الذي قدم الى دمشق عدة مرات وبعد ذلك أستقر فيها في عصر المماليك وكان يدعي أنه كان له ببغداد كتب تقدر بألفي مجلد غير أن جماعة من التجار اغتصبوها وجاءوا بها الى دمشق وباعوها ( المقرئزي ، 1951: 702 / 4 ؛ أبن تغري بردي ، 1960 : 202 / 3 ) .

وأيضاً أهتم بعض منهم بعلم الطب والكيمياء والنجوم، ويبدو أن سبب اشتغالهم ودراستهم الكيمياء هو تحويل المعادن الى ذهب، وعقد بعضهم حلقات العلم للطلبة والتجار والفلاسفة لمناقشة الطلبة والرد على الفلاسفة، وحرص بعضهم على حضور مجالس العلماء السلاطين، وقد أهتم الكثير من التجار العراقيين بكثرة العطاء للفقهاء والشعراء وذلك حرصاً منهم على نشر العلم ( ابن تغري ، 1960 : 219 / 2 ؛ أبن حجر ، 1972: 450 / 1 ) .

## 3 - النشاط المعماري

أهتم الكثير من التجار العراقيين بالناحية المعمارية حيث شيّدوا عدداً من المنشآت التجارية والعلمية ، فضلاً عن بناء القصور التي عاشوا بها والتي جمعت بين الفن العراقي والفن الشامي والمصري ، وتروي المصادر أن بعضهم قام بأنشاء المدارس وإيقافها لخدمة طلبة العلم ، مثل التاجر تاج الدين العراقي الذي أوقف مدرسة في مصر لتدريس الحديث ( أبن كثير ، 1932 : 14/156 ؛ أبن حجر ، 1972 : 3/186). والتاجر محمد بن الكويك الذي عمر بالإسكندرية مدرسة وجعلها مسجداً وداراً للحديث، حيث أنفق عليها من ماله الخاص ، وحرص على أن تدرس فيها العلوم الدينية ولأسيما علم الحديث، وفي أدناه نص تأسيس هذه

المدرسة (( بسم الله الرحمن الرحيم، وإن المساجد لله ولا تدعو مع الله إله آخر، وقف هذا المسجد المبارك، ودار الحديث العبد الراجي رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتي لتلاوة الكتاب العزيز وقراءة الأحاديث النبوية، وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام ابن عبد محمد إدريس الشافعي رحمة الله عليه في المحرم سنة ثمان وسبعين وستمئة هجرية وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه)) . (القلقشندي، ب ت : 290 / 5 ) .

أيضاً أنشأ بعضهم المدارس خارج مصر، مثل التاجر ابن رواحه الذي أنشأ مدرسة بدمشق تحمل اسمه وعرفت بالمدرسة الرواحية، فضلاً عن ذلك أنشأ التجار العراقيين الخانقاوات والتي من أهمها خانقاه الكويك التي أنشأها سراج الدين بن الكويك، وأيضاً شيد التاجر عبد الرحمن بن سويد الرباط التكريتي بالإسكندرية (النعيمي، 2016 : 192) .

وفي مجال الإصلاح والترميم، ساهم التجار العراقيين في إعادة أعمار الكثير من المساجد والمنشآت المدنية مثل التاجر عمر بن علي المحلي البغدادي الذي جدد جامع عمرو بن العاص وذلك عندما تداعى للسقوط وقام التاجر نور الدين علي بن محمد بن أحمد بن محمود بن الكويك الربيعي التكريتي بتجديد حماماً في القاهرة كان قد أنشأ في عهد الوزير عباس أحد وزراء الدولة الفاطمية، فقام هذا التاجر بإعادة بناءه وتجديده سنة (749هـ/1338م) وعرف باسم حمام الكويك منذ ذلك الوقت . (المقريزي، 1998 : 302 / 2) .

فضلاً عن ذلك كان لبعض التجار العراقيين إسهام كبير في بناء دوراً خارج مصر أيضاً، حيث ذكرت المصادر أن التاجر العراقي عبد الكريم الزبيري البصري قد شيد داراً بمكة وعمّر دوراً أخرى في مناطق مختلفة ( السخاوي، 1985 : 200 / 1؛ النعيمي، 2016 : 193؛ المقريزي، 1998 : 307 / 2) ،

وهكذا كان العراقيين مآثر وأياد بيضاء على جميع المجتمعات التي عاشوا فيها ولاسيما في مصر وبلاد الشام، نظراً لما يتمتعون به من ثروات وما يتحلون به من أخلاق جيدة، فكانوا خيرة رجال عصرهم مكانه وعلماً وأسدوا خدماتهم لدولة المماليك في كافة المجالات السياسية والحضارية .

#### الخاتمة:

بعد الانتهاء من إعداد هذا البحث يمكن أن نخرج بالنتائج التالية  
1 - كان لسوء الأوضاع السياسية والاقتصادية التي حلت بالعراق في أعقاب احتلال بغداد من قبل المغول وسقوط الخلافة العباسية أثره الكبير في هجرة مجموعة من أصحاب رؤوس الأموال والتجار والمتقنين العراقيين للبحث عن مناطق أكثر أمناً واستقراراً ولذلك تركزت وجهتهم نحو بلاد الشام ومن ثم مصر .

2 - أثمرت هذه الهجرة عن نتائج إيجابية كثيرة وفي مختلف المجالات حيث أسهم معظمهم في أثناء التاريخ السياسي والحياة الاقتصادية وكانت للعراقيين أثرهم الواضح في تعميق الصلات بين دولة المماليك والكثير من الدول .

3 - أبرز الإنجازات الحضارية للتجار العراقيين تمثلت في جهودهم في نشر الإسلام في مناطق شرق وغرب أفريقيا وشرق وجنوب آسيا، وذلك بفضل المكانة المتميزة التي تمتعوا بها في تلك المناطق وحسن تعاملهم وصدقهم في معاملات البيع والشراء فعمكسوا الأثر الإيجابي للإسلام مما شجع أغلب تلك الشعوب على تفعيل دخول الإسلام فيها .

4 - كانت للكثير من العراقيين إسهاماتهم في الناحية العمرانية سواء في بناء أو تعمير مجموعة من المدارس والمنشآت التعليمية والمدنية التي لاتزال شاخصة للعيان .

5 - رغم المكانة الكبيرة التي تمتع بها العراقيين في دولة المماليك لكنهم لم ينجوا من تعسف وظلم بعض السلاطين ولاسيما عندما تتعارض مصالحهم مع هؤلاء الوافدين .

#### أولاً: المصادر الأولية :-

1 - ابن أبي الفضائل، المفضل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه ، باريس، 1982م .

2 - ابن أياس، محمد بن أحمد بن أياس الحنفي، (ت 912هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982م .

3 - ابن أبيك ، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1972 م .

4 - ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، (ت 779هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) المكتبة التجارية، مصر، 1938م .

5 - ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1960م .

6 - ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت 852هـ) ، تحقيق محمد عبد المعيد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، ط 2، 1972م .

7 - الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق الشيخ محمد بسيوني، مطبعة الهلال، 1912م .

8 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن ينيق (ت 808هـ) ، تاريخ ابن خلدون المعروف ( العبر وتاريخ المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، دار الكتاب اللبناني، 1983م .

- 9 - السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد، (ت 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، 1985م .
- 10 - ابن عبد الظاهر، محي الدين بن عبد الظاهر، تشرىف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي، 1961م .
- 11 - الغياث، عبد الله بن فتح الله، التاريخ الغياثي، تحقيق طارق الحمداني، مطبعة أسعد، بغداد، 1970م .
- 12 - ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807هـ)، تاريخ ابن الفرات، المطبعة الامريكية ن بيروت ، 1942م .
- 13 - أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت 732هـ) ، المختصر في اخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ب ت .
- 14 - ابن فضل الله ، شهاب الدين ابن فضل العمري ، ( ت 749هـ ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دار الكتب العلمية ، 2012 م .
- 15 - القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت 821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق حسين الشماع ، دار الكتب العلمية ، ب ت .
- 16 - ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر دمشقي(ت 774هـ) ، البداية والنهاية، القاهرة ، 1932م .
- 17 - المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد الله بن محمد ( ت 845هـ )، السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ، 1963م .
- 18 - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار ، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، مكتبة مدبولي ، 1998 م .
- 19 - النعيمي، عبد القادر بن محمد ، الدارس في تاريخ المدارس ، مطبعة الترقى ، 1948 .
- 20 - ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي (ت 749هـ) تاريخ ابن الوردي المعروف ( تنمة المختصر في أخبار النشر)، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969م .

#### ثانياً: المراجع الحديثة

- 1 - إبراهيم طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، القاهرة ، 1975 م .
- 2 - أحمد عودات وآخرون، تاريخ المغول والممالك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، أريد ، دار الكندي ، 1990م .
- 3 - حامد، عمار، علاقات الدولة المملوكية بالدول الافريقية ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، 1996 م .

- 4 - سلمان عطية، سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، 1959م .
- 5 - الأشقر، محمد عبد الغني، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م .
- 6 - عاشور ، سعيد عبد الفتاح، الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م .
- 7 - العاني ، نوري عبد الحميد ، العراق في العهد الجلائري ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، 1982م.
- 8 - العدوي، إبراهيم، تاريخ العالم الإسلامي ، القاهرة ، 1982 م .
- 9 - العنبيكي، أنوار جاسم، الكارم وأثرهم في نشر الإسلام في أفريقيا عصر المماليك ، مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية ، العدد 22 ، 2015 م .
- 10 - محمد زيتون ، الصيف والعرب، القاهرة ، 1964 م .
- 11 - المشهداني، ياسر، رؤية جديدة في أصول التجارة الكارمية مجلة محور دراسات الأدب واللغة والتاريخ ، جامعة الموصل ، كلية التربية الأساسية ، العدد 39 ، تموز ، 2019 م .
- 12 - محمد رجب ، انتشار الإسلام بين المغول ، القاهرة ، 1986م .
- 13 - يوسف، جرجيس، التنظيمات التجارية في بلاد الشام بين الغزو المغولي والتيموري ، ( 658 - 803 هـ ) ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1983 م .

## The cultural impact of the Iraqis in the Mamluk era

Assis. Prof. Dr. Anwar Jassim Al-Anbaki

Faculty of Education- AL Mustansiriya University

dr.anwar.alanbuke@gmail.com

Keywords: archeology, civilization, Iraqis, Mamluks

### Summary :

Before and after the fall of the Abbasid Caliphate at the hands of the year (656 AH /1258 AD) , many Iraqis immigrated to Egypt and the Levant during the era of the Mamluk state , and transferred with them their wealth , experiences and cultures , and some of them settled at the beginning of their migration in the Levant , and the other part settled in Egypt Especially in Cairo and Alexandria , they worked in different fields under more secure and stable conditions , and many of them gained great prestige and great favor with the Mamluk sultans , and they had clear influences in all aspects of life ,especially the side Civilizational politics .